الامر فان لم تجدها مطابقة رمت بها في وجه قائلها فتنقلب دعواه مقتاً عليه ويسقط من قلوب الناس اجمعين اذ لم يروا له أثرا يفيدهم سوى ان يخبر عن نفسه باوصاف لا حقيقة لها . وكذلك اذا ارشد الى غاية هو متوجه صوب ضدها ويظن ان الناس يسترشدون بارشاده فهو لا محالة مطبق الغفلة مركب الجهل اذ لا يعلم أن الافعال تؤثر في النفوس اضعاف ماتؤثر الاقوال فان القول عند النفس يحتمل التصديق والتكذيب فتتردد في مفهومه فلا يقودها الى العمل الا بعد تكرار وتذكار اما الفعل فهو امر مشهود ينطبع في النفس اشد انطباع فتندفع اليه خصوصا ان كانت فيه لذة معجلة . وان عاب على غيره وصفاً هو موجود فيه فقد جهل ان ذكره لعيب الغير ينبه الاذهان للنقص القائم بنفسه فان المتكبر مثلا اذا ذم الكبر في غيره فقد ذم نفسه من حيث هو لا يشعر فهو جاهل بنفسه وبما يعود عليها وهو ظاهر

واما اعترافه بنقصه وعجزه فلانه لم يصدر منه ذلك (اي الدعوى بما ليس فيه وترغيب الناس فيما لا يرغبه لنفسه او فيما ليس بمتصف به بل هو منحرف عنه وذكره لمثالب الغير وهي فيه) إلا لاجل ان يبين للسامعين كماله وفضله ويظهر لهم وصولهم لما يهديهم اليه وخلوه من النقص الذي يلوم عليه الغير حتى يعظموه ويقوموا له بقضاء بعض حاجاته حيث علم ان الكمال الذي يدعيه هو مناط التعظيم وجلب المنافع وكانه بذلك ينادي على نفسه بانه لم يبلغ من ذلك شيئاً لانه لو بلغ الكمال الذي يدعيه لكانت نتائج ذلك الكمال ناطقة برفعة قدره شاهدة بعلو مقامه سواء ادعى ذلك عن نفسه او لم يدع وسواء نقص غيره او كمل ولم يكن هناك

داع لمدحه نفسه او ذمه لغيره بل تكون آثار فضله فاعلة في النفوس جاذبة لها اليه بذاتها فمن تكلف الاطراء على نفسه بوصف من الاوصاف الفاضلة اورام اظهار كماله بالحط من قدر غيره فذاك معترف بانه خال من الفضيلة حيث لم تشهد له الحقيقة فاضطر الى النداء بالكذب ليقنع السامعين بانه كذلك

واما خبث مقصده ودناءة همته فلأن من هذه صفته لا يريد ان يكون ذا فضيلة قط ولا يبتغي الوصول الى كماله ولكنه يطلب عيشاً حيثما اتفق فاذا جلس الى بعض البسطاء او غيرهم طلب التلبيس على عقولهم ليقرر في نفوسهم انه متصف بالصفة التي يذكرها عن نفسه او يرشد اليها وانه خال من العيب الذي يسب به غيره ليوقروه فيكتسب منهم مساعدة على بعض اغراضه الخسيسة او يستفيد منهم حطاما يسد به بابا من ابواب مهمته وشرهه فهو في ذلك بمنزلة المشعبذين او المختلسين او السارقين ونحو ذلك من كل ذي حياة خسيسة لجلب الاموال ولا يختلف عن هؤلاء الا بالاسم فقط حيث يقال انه غش الناس بحكاية الكذب وهو المسمى في عرفنا (بالفشر ويقال لصاحبه فشار)

فالقول الذي لا يعضده الفعل يحسب من اردأ الاوصاف واقبحها لانه يشعر بوجود اوصاف تشهد البداهة بقبحها ومن الاسف ان هذا الوصف يوجد في كثير من اهالي بلادنا بل في الغالب منهم بل لا يوجد القائل الفاعل الا قليلا جداً (واننا نخجل من تسجيل مثل ذلك في

الجرائد ولكن اي فائدة في اخفاء عيب فينا عرفه الغير منا فحق علينا ان نذكر به لعله تنفع الذكرى)

اننا ان طرقنا المجالس الخصوصية في بواطن البيوت والاندية العمومية في الاماكن العامة لا نعدم قائلا عن نفسه انه قرأ من العلوم معقولها ومنقولها وطالع الكتب العالية ووقف على المباحث الجليلة وكشف بواطن الدقائق الخفية واستطلع الاسرار وكان مع ذلك مشهورا في زمن الاشتغال بالفطنة والذكاء وتوقد الفكرة وقوة الحافظة ونحو ذلك. وآخر يقول انه بلغ من الاقتدار على الاقناع في الجدل والافحام عند المخاصمة وتفهيم الطالب عند الاستفادة حداً لا يصل العالمون الى غباره وان له من طرق الاقناع والافهام مالا يتيسر لغيره معرفتها وانه يحيي بكلامه الاذهان الميتة ويحشر اليها صور المعلومات ويودع فيها اسرار الكائنات ولو سألت كل واحد من الذين يظن فيهم وصف العلم والتعليم لرأيته يحدث عن ذاته بكل الذي قلناه ويقول لو كان الناس يسلكون هذا المسلك الذي اسلكه لانتشر العلم وعمت المعرفة

لكننا اذا رجعنا الى الواقع ونفس الامر رأينا أن التآليف والتصانيف مفقودة وان وجد منها شيء كان ناقصا اما من جهة المعنى واما من جهة اللفظ بحيث لا تدل عبارته على ما قصد منه فيكون كعدمه والطالبون للعلوم على اختلافهم قاصرون عن ادراك ما اضاعوا عمرهم فيه ودليلنا على ذلك احتياجهم دائما الى غيرهم وعدم قدرتهم على الاستقلال بعمل يعملونه في نفس العلم او الصناعة التي تعلموها فتارة يحتاجون الى الاجانب واخرى الى بعض الوطنيين (وربما نبين هذه الجملة في وقت آخر)

ومن الناس من اذا ذاكرته في المنافع العامة والمصالح الكلية اخذ يشرح غوامضها ويبين الواجب فيها والطرق الموصله الى جلب النافع ورفع الضار والوسائل المؤدية الى تقويم حال الامم وارتفاع شأنها من رفع منار العدالة وبث روح العلم وتقرير المساواة وما شا كل ذلك ثم اذا فوض اليه امر من تلك المصالح رأيته ابعد الناس عن الخير وأقربهم الى الشر واستنكف من المساواة واستهجن معنى العدالة وان كان يعبر عن نفسه بلفظها وسار مع اغراضه وشهواته وجعلها قانونا يتبع ويعد كل ذلك حقا وهو في درجة وعظه الاولى لم يخجل ولا يتلعثم له لسان في النصح ودعوى معرفة الحق ولو ان احدا عارضه بحق في أي جزئية عقب ترغيبه في قبول النصح والمساواة لرأيته يتذمر ويتضجر ويود ان يفتك بمن يناقضه في بعض آرائه ويهدي اليه نصحا في بعض اعماله

ومنهم من يقول ان كل مصيبة ألمت بالنوع الانساني لم يكن منشؤها الا التباغض والتحاسد وتفرق الكلمة والميل الى المنافع الشخصية وعدم الاكتراث بمنافع العامة :ونحو ذلك من الاقوال الصحيحة المسلمة ولو أنك لاقيت كل يوم الف شخص لرأيته يقر بذلك ويعترف به مدعياً أنه يميل كل الميل الى الاتحاد والائتلاف وانما تأتي النفرة من غيره ثم لو أتى اليه مطالب بحق في وقت المذاكرة لرأيته يعد هذه المطالبة امراً كبيراً وان كانت بغاية من اللطف والانسانية والتوى من الغيظ التواء الثعبان . ولو دعي الى اعانة ملهوف أو ازالة مكروه عن بعض أخوانه أو الداخلين تحت أمرته رأيته يتعلل ويعتذر أو يتمنع ويستكبر ويقول «ليس هذا من شغلي» ولو طلب الى تأسيس أمر خيري يفيد الزراعة أو الصناعة او

يساعد على التربية الحقة وجدته يستصغر ذلك ويسفه آراء طالبيه ويقول: ماذا يعود على شخصي من ذلك ومالي وللعامة دعهم في شأنهم يرزقهم الله من غيري: كأن جنابه يظن ان المحبة والاجتماع والالفة التي يدعيها ويميل اليها يجب ان تكون له من الغير لا في مقابلة منفعة ولا جزاء لدفع مضرة بل لا بد ان ينفعه الناس وهو لا ينفعهم!! وما أجهل امثال هؤلاء السفهاء واضل رأيهم (ومن العجب أنهم كثير جداً)

ومنهم من يرشد الى العدل ويدعو الى الانصاف ولكن اذا عرض له حق في طريق منفعة خاصة له داس الحق برجله طلبا للوصول الى غايته وكأنه يعد ذلك من قبيل الانصاف الذي يدعيه او اضرب عن النصح والرشاد الى وقت آخر

ومنهم ينتقد على الظلمة ومرتكبي الجرائم وفاسدي الادارة وسيئي التدبير ثم تراهم واقعين فيما ينتقدونه على الغير كأن محل الانتقاد ان يكون الفعل صادراً عن سواهم أما اذا كان صادراً عنهم فقد اكتسب الحسن من ذواتهم المقدسة

فأمثال هؤلاء الذين ذكرتهم لا يعرفون في العالم قبيحا ولا حسناً ولا صحيحاً ولا فاسداً وانما هي ألفاظ وزنوها نطقاً ولا يفهمونها حق الفهم وألفوا استعمالها في مواقع مخصوصة فهم يستعملونها كما سمعوها بدون ان يعلموا لها حقيقة ووجودهم في الهيئة الاجتماعية شؤم عليها وهم في رتبة الحيوانية الاولى لا يعترفون بالحقائق الثابتة بل لا يرون حسنا الا ما يصل الى احساساتهم الظاهرة من اللذائذ الوقتية فاذا مضى وقتها ذهلت افهامهم عنها ولا ينتبهون لحسنها الا اذا وردت عليهم مرة أخرى وهكذا

ولا يرون قبيحا الا ما يصل الى ادراكاتهم من المؤلمات الوقتية كذلك فاذا زال ألمها غفلوا عنها كانها لم تمسهم فان رأوها لاحقة بغيرهم لم يعدوها مؤلمة ولم ينظروا اليها نظر الآسف المستنكر فيختلف عندهم حسن الشيء وقبحه بالاضافة الى انفسهم تارة والى غيرهم تارة أخرى وليس عندهم صورة ثابتة لماهية الحسن وماهية القبيح ولا حقيقة النافع او حقيقة الضار وانما هي اهواؤهم يعبرون عنها بالالفاظ المطنطنة كالمصلحة العامة والمنفعة العمومية والحقوق الوطنية وما شاكل ذلك من المحفوظات الخالية عن المعاني بلوكونها بألسنتهم ومع ذلك فهم لا يسلمون من شر مايقولون فهم لا محالة يعود عليهم بعاقبة بئست العاقبة

ولكنا لا نحب ذلك ونود ان يكون الفعل أكثر من القول وان يكون كل شخص من ابناء بلادنا صغيراً كان أو كبيراً مجدا في نيل الفضيلة الثابتة التي يلهج بتحسينها واجراء مقتضاها حتى تكون بذاتها شاهداً عدلا على أهلية صاحبها لما يقول وتنتشر الاعمال الصالحة المنطبقة على الشرائع الحقة فتسير المصالح على صراط مستقيم وينال كل شخص حظه الحقيق من ثمرات اتعابه الآتية على وجه منتظم فيعود النفع على العامة والخاصة أما الفخفخة وكثرة اللغو فانها من شدة العجز لا تعيد ولا تبدي والله الموفق